تجسير
لدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية البينية

تاريخ الاستلام: 16 ديسمبر 2024 | تاريخ القبول: 21 يناير 2025

OPEN ACCESS

مراجعة كتاب

دراسات بينية في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاستشراق – اللغة – الفلسفة، لسعد سرحت

مراجعة: رفيق بلعيدي

دكتوراه في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة – الجزائر

Rafiq.belaidi@univ-biskra.dz

Book Review

Interdisciplinary Studies in Anthropology and Sociology: Orientalism-Language-Philosophy, by Saad Sarhat

Reviewed by: Rafiq Belaidi

PhD in Cultural and Social Anthropology, Faculty of Social and Human Sciences, University of Mohamed Khider Biskra-Algeria.

Rafiq.belaidi@univ-biskra.dz

Book Title:	*Interdisciplinary Studies in Anthropology and Sociology: Orientalism-Language-Philosophy,* by Saad Sarhat	عنوان الكتاب: دراسات بينية في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاستشراق - اللغة - الفلسفة، لسعد سرحت	
Authored by:	Saad Sarhat.	المؤلف: سعد سرحت	
Edition :	Arabic language	الإصدار: اللغة العربية	
Publisher:	Dar Konoz Al-Marefa For Publishing	الناشر: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر النشر: 2024	
Year of publishing:	2024		
No. of pages:	270 pages	عدد الصفحات: 270 صفحة	
eBook: ISBN:	9789923492741	الترقيم الدولي (ردمك):	

للاقتباس: بلعيدي، رفيق. "مراجعة كتاب: دراسات بينية في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاستشراق – اللغة – الفلسفة، لسعد سرحت"، **مجلة تجسير لدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية البينية**، المجلد السابع، العدد 1 (2025): 227-235.
https://doi.org/10.29117/tis.2025.0215

© 2025، بلعيدي. الجهة المرخص لها: مجلة تجسير، دار نشر جامعة قطر. نُشرت هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-Noncommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وتنبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأي وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف. https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0

مقدمة

يُعد هذا الكتاب بمثابة نقد علمي للعلوم البينية المعتمدة في العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ حيث يُعيد النظر في الحاجة إلى هذه العلوم وأهمية الاعتماد عليها، موضحًا وجود تجسير بين مجموعة من التخصصات العلمية وبين البنية الأيديولوجية المشتركة التي تجمع بينها. يؤكد المؤلف في مقدمته أهمية الدراسات البينية بين العلوم، مشيرًا إلى الأبعاد والمضامين الأيديولوجية التي تصاحبها، والتي تُلقي بثقلها على الباحثين الذين يعتمدون على التقاطع المعرفي بين العلوم، ويطرح إشكالية أساسية تتجلى في التساؤل عن الأسباب التي تدفع الباحث إلى اللجوء إلى الدراسات البينية، وما المضامين والغايات الأيديولوجية التي تتضمنها هذه العلوم. ويرى سرحت أن استعانة تخصصات كعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بأدوات ونتاجات العلوم الأخرى "لم تكن صادرة عن عفو الخاطر، ولا عن حاجة تستدعيها طبيعة التخصص، وإنما كانت ممنهجة ومقصودة ووفية لمرجعياتها الغربية إلى حد بعيد"[1]. وهكذا، تتضح أهداف الكتاب التي تسعى إلى تعرية النسق الأيديولوجي المضمر في بنية هذه التخصصات العلمية وتوجّهها نحو الاعتماد على الدراسات البينية، مع تقديم نقد فكري للإنتاج المعرفي الغربي ونظرته إلى "الآخر" وذلك البراني عن ثقافته.

أولًا: هندسة الكتاب ومضامينه الرئيسة

يتكون الكتاب من ثلاثة أبواب قُسّم كل منها إلى ثلاثة فصول، يوجّه فيها الكاتب نقدًا لبعض من العلوم الإنسانية والاجتماعية ذات العلاقة البينية مع كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، موضحًا التداخل الإبستمولوجي القائم بين هذين العلمين من جهة، والاستشراق واللغة والفلسفة من جهة أخرى، مع التركيز على فكرة التقاطع المعرفي الذي حدث سواء بتوجّه موضوعي أو أيديولوجي متعمّد أو ضمني، مما يبرز أهمية هذا الكتاب في محاولة المؤلف تعرية المضامين الأيديولوجية التي يرى أنها ذات مرجعية غربية استعلائية، يسعى من خلالها الفكر الغربي إلى ترجيح كفّته وجعله نموذجًا للفكر السامي في متتالية التطور الفكري والعلمي، وذلك بالتقليل من القيمة الفكرية للشعوب الأخرى والنظر إليها بازدراء لترسيخ فكرة تشبه علاقة الشيخ بالمريد.

يمهد الكاتب لفكرة التلاقح المعرفي – كما سماها – بين العلوم المذكورة سابقًا، من خلال الفصل الأول من الباب الأول، الذي خصصه لفهم العلاقة الوطيدة بين الاستشراق والأنثروبولوجيا، واتّخذ من دراسة المستشرق الفرنسي ليون جوتييه (Léon Gautier) أنموذجًا لتعرية الخطاب الدوني المتضمّن في تحليله للثقافة الإسلامية؛ حيث اعتمد جوتييه على المنهج الأنثروبولوجي في عقد مجموعة من المقارنات الثنائية والأيديولوجية بين الثقافة الغربية واليهودية والثقافة العربية، التي وصفها بأنها بدائية ومحدودة التطور، وأنها ثقافة غير منطقية، كما زعم أن ضعف اللغة العربية يعيق الإنسان العربي عن بلوغ مرحلة الفكر الفلسفي القائم على التجريد. لقد سعى جوتييه عبر اعتماده على الإثنوغرافيا والإثنولوجيا (أي الوصف والمقارنة كمرحلتين أساسيتين في المنهج الأنثروبولوجي) إلى ترسيخ فكرة عدم التكافؤ بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، بوقوفه على مجموعة أنظمة مكوّنة للثقافة العربية، (مثل الطهي، الملبس، اللغة، الشعر، القبيلة) معتبرًا أن بنية هذه الأنظمة بنية غير منطقية. يؤكد المؤلف أن اختيار جوتييه لنظام الطهي كأولوية لم يكن عشوائيًا[2]، بل كان بهدف الإيحاء بأن الثقافة العربية تركز على إشباع الغرائز البيولوجية أكثر من اهتمامها بالتفكير الفلسفي أو التأمل في الوجود وماهية

1 سعد فرحت، **دراسات بينية في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاستشراق – اللغة - الفلسفة** (عمان: دار كنوز المعرفة، عمان، 2024)، ص8.

2 سرحت، ص37.

الكون. وقد جاء ذلك في تغييب متعمّد للتطور والإنتاج العلمي والفكري الذي شهدته الحضارة الإسلامية في حقب معيّنة من تاريخها. غير أن الكاتب يعترف بأن هذا المستشرق الفرنسي قد أسهم في إثراء البحث في الثقافة الإسلامية من خلال عثوره على مخطوطات قيّمة تخص هذه الثقافة، مما خدمها بشكل كبير. كما يشير الباحث أنور محمود زناتي إلى دور جوتييه في التواصل الفعّال بين الثقافتين الفرنسية والعربية، نظرًا لإجادته اللغتين[3]؛ حيث يرى أن الغرب تمكّن من "تغيير نظرته للشرق واستجاب لدور الحضارة العربية الإسلامية بفضل أعمال ليون جوتييه"[4].

حاول المؤلف في الفصل الثاني إبراز موضع المنطق من خلال الخطاب الأنثروبولوجي حول العقلية البدائية عبر دراسات إميل دوركايم (I. Durkheim) ولوسيان ليفي بريل (L. Lévy-Bruhl) اللذين قدّما نظرة استباقية تعميمية للإنسان البدائي، مع غياب واضح لمبدأ النسبية الثقافية في تحليلاتهما، كما أدى افتقارهما إلى المعايشة الميدانية إلى إصدارهما أحكاما مسبقة على العقلية البدائية بالافتقار إلى التفكير المنطقي، بحيث يحتكم الإنسان البدائي إلى الميتافيزيقيا والعواطف أكثر من اعتماده على الربط السببي والمنطقي بين الأحداث؛ ومردّهم في ذلك إلى غياب مبادئ العقل والفكر المنطقي، المتمثلة في قانون الذاتية، عدم التناقض، الثالث المرفوع، والوسط المستعبد، وقانون العلية، التي يختلف كل من دوركايم وليفي بريل في استحضارها ضمن تحليلاتهما للعقلية البدائية. في حين أشار المؤلف إلى ثلاثة مبادئ رئيسية تقاطعا فيها عند تحليل الفكر البدائي: "الهوية وعدم التناقض، مبدأ السببية، الزمان والمكان"[5]، وتحسب للمؤلف قدرته على الربط بين المنطلقات الفلسفية للمنطق وتطبيقاته في مجالي الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. أما في الفصل الثالث، فسعى إلى تبيان حضور الإثنولوجيا في الخطاب الاستشراقي من خلال نقد أعمال المستشرق الألماني جيمس مونرو (James Monroe) الذي درس التقاليد الشفهية في الثقافة العربية من منظور إثنولوجي، معتبرًا المنهج الأنثروبولوجي أداة فعالة لفهم الأدب الشفهي والتاريخ المنطوق، لكنه حكم على الثقافة العربية بأنها شفوية بطبيعتها، مبررًا ذلك بأمية الفرد العربي، الذي – حسب رأيه – لم يتجاوز المرحلة الشفوية نحو الكتابة، وهو ما يتنافى مع تاريخ الثقافة العربية التي شهدت في فترات عديدة تنظيم أشعار وقصائد مكتوبة. وعرض المؤلف رؤى مجموعة مستشرقين اعتمدوا على المقاربة التطورية لتحليل الشعر العربي؛ حيث ركزوا على أسبقية النثر على الشعر، وأفضلية الكتابة على اللغة الشفوية، معتبرين أن كل ما هو شفوي بالضرورة متخلّف. وأوضح المؤلف أن هؤلاء المستشرقين وظفوا المنهج الأنثروبولوجي والمقاربة التطورية لتأكيد نظرية مسبقة، مفادها تخلّف وبدائية الشرق مقارنة بالغرب.

تدور أفكار الباب الثاني من الكتاب حول التجسير المعرفي بين الأنثروبولوجيا واللغة، ويبرز المؤلف من خلال الفصل الأول من هذا الباب كيفية استعانة الأنثروبولوجيا بالنموذج اللغوي والألسني لفهم الثقافة، وكون اللغة تعد مدخلًا أساسيًا لفهم الثقافة ومبدأ رئيسيًا في البحث الأنثروبولوجي، ومن دونها سيختل فهم الواقع الاجتماعي. ركز المؤلف على ابراز طريقة حضور اللغة في التحليل الثقافوي الأمريكي؛ حيث يتغير حضور اللغة باختلاف المفهوم المقدم للثقافة بين من جعلها متعالية تجريدية ومن حاول التوفيق بين المحسوس والجوهر فيها. وفي الفصل الثاني، أوضح الباحث تلك الطفرة النوعية التي شهدها علم الاجتماع وعلم اللسانيات والأنثروبولوجيا بهيمنة النزعة الوضعية والبنيوية في التحليل ورفض العودة إلى التاريخ، والاعتماد على آنية الظاهرة وفهمها وفق سياق اللازمنية، وهو ما يظهر جليًا في كتابات دوركايم

3 أنور محمود زناتي، "المستشرق الفرنسي ليون جوتييه (1862-1949) ودوره في الحوار الثقافي بين الشرق والغرب"، **مجلة دراسات استشراقية**، ع37 (2024)، ص189.

4 زناتي، ص190.

5 سرحت، ص70.

ودي سوسير (De Saussure) وكلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) التي أوضح المؤلف فيها البعد اللازمني في تحليلاتهم والغاية الموضوعية والانفلات الأيديولوجي فيها. وبالعودة لهيمنة النزعة الكولونيالية في تلك الفترة، فإنه يكون من الواضح أن سبب رفض التاريخ هو شرعنة الاستعمار بهدف مزعوم هو إعادة البناء وتطوير وتأهيل تلك المجتمعات المتخلّفة في آنيتها. في حين ذهب في الفصل الثالث إلى استعراض مفهوم القراءة في الثقافة العربية وفق مقاربة أنثروبولوجية تأثيلية، وبرّر ذلك بأن "مصطلح (القراءة) يتميّز بقوة تداولية كبيرة توفر له كل أسباب التهجين والانتماء، فهو يتزيا بكل زي وينتحل أي منهج"[6]، فالثقافة العربية حسب كتابات المفكر محمد أركون استفادت في الفترة الإسلامية من تضافر جهود مختلف اللغات والثقافات التي أضافت إلى الدين الإسلامي ومنه إلى اللغة العربية، مما جعل المؤلّف موفّقا في اختيار هذه المقاربة. حيث مهّد للتقاطع المعرفي بين اللغة والأنثروبولوجيا الذي تمخضّت عنه أنثروبولوجيا اللغة القائمة على فهم التمثلات وطرق التفكير الإنساني، واتخذ من فعل القراءة أنموذجًا لكشف هذا التداخل، لينتهي بنقد للأدبيات السابقة التي ناقشت مصطلح القراءة وتشريح بيانه في الثقافة العربية؛ ليتوقف عند مظهرين أساسين يراهما مكمن فعل القراءة وطبيعتها[7]، وهما: مظهر أولي ذو طبيعة ميكانزمية يربط الصورة المرئية بالعقل، ومظهر عقلي معقّد يترجم هذه الصورة وفق مضامين متداخلة بين الثقافة واللغة والفردانية. ومنه، يمكننا القول إن القراءة في الثقافة العربية تمثل حدثًا ثقافيًا ومعرفيًا وليست وسيلة للتلقي فقط.

خصّص الباب الثالث لفهم مواطن التقاء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بالفلسفة، هذا العلم الذي يتداخل مع كل العلوم تقريبًا، فكان من المهم أن يتطرق المؤلف إلى هذا الموضوع. ففي الفصل الأول، تناول الكتاب فكرة الاستعارة في النظرية الاجتماعية، والتي تمثل فعلًا أكاديميًا لا يخلو، حسب المؤلف، من مضامين أيديولوجية تتوارى تحت مظلة التبرير، محاولة التلاعب بعقل القارئ، فيوضح موقفه بقوله إن الاستعارة تعني "كل أشكال المبالغة والأحكام الإجمالية التي يتوسلها المنظر الاجتماعي المؤدلج بغية اختزال الحقائق وتشويهها بحجة التوضيح"[8]، وهو ما قد يؤدي إلى تشويه مصداقية الموضوع المدروس تحت حتمية تغليب منطق طبقة على طبقة أو فرض سلطة خارجية على ثقافة مجتمع آخر. قام المؤلف بمحاولة إبراز تلك النماذج والمفاهيم والأفكار التي تم تناقلها ضمن فلسفة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، بدءًا من موت الإله حسب قول نيتشه (Nietzsche) وإعطاء سلطة أكبر للعقل في القصدية وتوجيه الفعل الاجتماعي. ويظهر ذلك جليًا أثناء استعراض هذه الاستعارة في فلسفة أوجست كونت (Auguste Comte) الوضعية، التي نادى بأحقيتها في دراسة المجتمع لاعتمادها على الإمبريقية، مما يمنحها دقة في التحليل. ومكّنته فلسفته هذه من التنقل بين مختلف العلوم والأخذ من هنا وهناك بغية تحقيق أقصى قدر من الموضوعية في دراسة المجتمع، فتوّج فلسفته الاجتماعية بتعيين علم الاجتماع على هرم تراتبية العلوم، لكونه أسمى العلوم وأكثرها مرونة لاعتماده على الاستعارة من النماذج العلمية الأخرى.

ينتقل بنا الكتاب في الفصل الثاني من هذا الباب إلى تشريح دراسة دوركايم حول الانتحار وموضعها إبستمولوجيًا على طاولة الأيديولوجيا، كاشفًا عن الغايات الذاتية خلف فلسفته الاجتماعية، التي تقف على ركيزة استقلالية الظاهرة عن الفرد ومعاملتها معاملة الشيء وتقريبها من المحسوس المعروف للقدرة على تفسيرها وفهم مؤشراتها. وتتضح جليًا عودة دوركايم إلى الإشكالات الفلسفية الكبرى ليعيد تموضعه فيها، ما يعطي لنظريته متانة إبستمولوجية في فهم الواقع

6 سرحت، ص158.

7 سرحت، ص164.

8 سرحت، ص175.

الاجتماعي، لكن المؤلف يرى أن هناك مغزى أيديولوجيًا لتفسير ظاهرة الانتحار بدءًا من غايته في مواجهة علماء النفس ونقد النظرية السيكولوجية الذاتية في تفسير الانتحار، مبرزًا قدرة ودقة علم الاجتماع في تفسير ظاهرة معقدّة بدت قبله خارج أسوار السوسيولوجيا، وتعنى بالفرد لا الجماعة؛ فقد تمكن المؤلف من استقراء هذه المواجهة الحتمية التي شنّها دوركايم على التحليل النفسي، متّخذًا منه خصمًا، فإن أدركه فقد أدرك غايته في إدخال الانتحار كموضوع لعلم الاجتماع؛ وهذا ما يبرز فكرة الاستعارة التي انطلق منها المؤلف في أخذ بعض المفاهيم والآراء لتسويغ بعض الأيديولوجيات الذاتية للمفكرين ولو على حساب موضوعية الظاهرة، فاختياره لفكرة الاستعارة التبريرية ساعدته في استنطاق النسق الأيديولوجي الملازم للنزعة الغربية وليولات المفكرين الشخصية. وهو ما يحاول استكشافه في الفصل الثالث أيضًا بالتعرف على الملامح الأنثروبولوجية في فلسفة كيركجارد (Kierkegaard) الذي ينظر إلى الأنثروبوس من منظور استقلالية الذات، عكس ما تعرّض له الأنثروبوس في الفلسفات السابقة بتقييد حريته في إطار النسق الجامع والكلّياني. بالتالي، اضطرّت الأنثروبولوجيا إلى مسايرة الفلسفات الماهوية السابقة، كخضوع الذات للنسق في فلسفة هيجل (Hegel) الذي حكم على حرية الذات وإبداعها بمقدار وعيها بالروح الكلية المحيطة بها[9]. يرى المؤلف أن فلسفة هيجل قد خدمت الأنثروبولوجيا من خلال إعطاء فرصة لظهور كيركجارد (Kierkegaard) ومعارضته له وبحثه عن تحرير الذات من سجن النسق وسطوته، أو على الأقل الاعتراف باستقلاليتها في الوجود، باعتبار أن الفرد له مكانة وجوهر خاص به تلزمه بتحمل مسؤولياته الفردية دون الاحتماء بالجماعة. فقد بنى كيركجارد فلسفته للأنثروبولوجيا مستعينًا بالمفارقة اللاعقلانية، لكون الأخذ بسلطة العقل يعني الأخذ بألوهيته، غير أن الوجود يفرض علينا تكوين معرفة تشكل باستمرار شذرات غير مكتملة؛ فإذا كان هيجل قد انتهى في فلسفته بعقلنة الواقع وربط إدراك الوجود بالعقل، بحيث يمكن فهم كوجيتو فلسفة الأنثروبولوجيا عنده بعلاقة العقل بالجسد الذي يدخل في علاقة ميكانيكية مع جسد آخر محافظًا على هويته قبل وبعد إنشاء العلاقة[10]، فإن كيركجارد بدأ فلسفته بالاحتفاء باللاعقلي لكونه مفتاح الإمساك بالوجود؛ فقد رأى أن المسيحية تحتاج إلى الإيمان اللاعقلاني الذي يصعب تفسيره وفهم سببيته، مما يجعله متعاليًا عن كل التصنيفات العقلية التي حاولت تفسيره وفهم علّته.

ثانيًا: قراءة تحليلية في خلفية الكتاب

ينتمي الكتاب إلى الدراسات النظرية النقدية؛ حيث يظهر أن المؤلف اعتمد على المنهج التحليلي والنقد لكشف العلاقة الموجودة بين العلوم البينية المدروسة. فعند قراءة الكتاب قراءة معمّقة وفاحصة يبرز تمكّن الكاتب من تقديم تنظيم جيد لعناوين الأبواب والفصول من خلال الانتقال التراتبي بين الاستشراق واللغة والفلسفة، التي تتداخل معرفيًا مع المتغير المستقل (الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع). غير أن هيكلة العناوين الفرعية للفصول مقارنة بعنوان الفصل نفسه تحمل نوعًا من الاضطراب وعدم التناسق بين مضمون الفصل وعنوانه الذي يحمل دراسة باحث معين، ففي حين أصاب في أفكار كثيرة، إلا أنه من خلال قراءتنا يتراءى أن القطع الذي يعتمده المؤلف بالرجوع إلى تحليل دراسات باحثين آخرين قد أثرت على الفهم العام لمضمون الفصل، لم يلتزم عند التحليل بالوقوف على أرضية واحدة، وهي فكر الباحث المراد نقد أعماله. وهذا يُلزم القارئ بالتركيز وإعادة القراءة لفهم المعنى المقصود.

9 سرحت، ص244.

10 Nicholas Mowad, "The Soul and the Body in Higel's Anthropology", *PhD thesis*, The Faculty of the Graduate School, Chicago: Loyola University Chicago, 2010, p. 19.

إن الفكرة المحورية التي يدور حولها الكتاب هي نقد التمركز - الإثني الغربي الذي طال مختلف نتاجاتهم العلمية في العديد من التخصصات؛ كالأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والدراسات الاستشراقية، واللغة، والفلسفة، والمنطق. كما سعى المؤلف جاهدًا إلى كشف الخطابات الأيديولوجية التي نادى بها الغرب ضمنيًا وجهرًا في سعي منهم لترسيخ تفوق الإنسان الغربي كذات وجماعة. فإذا كانت الفكرة المركزية في الكتاب هي الكشف عن الأيديولوجيات المشتركة بين العلوم المتقاطعة معرفيًا، إلا أن النظرة الأحادية للمؤلف، بالتركيز على جانب معين لقراءة هذه العلوم، قد غطت على منهجية تطور العلوم والفكر الغربي نفسه، ذلك أن التوتر والتقاطع المعرفي هما اللذان يؤديان إلى تقدم العلوم، وأغلب القفزات النوعية في أنطولوجيا هذه العلوم وفلسفاتها كان نتيجة هدم براديغم سابق لها، أو نشوب نزاع لاحق بين مدارس متنافسة للفكر العلمي[11]. كما أسهمت الهجرات التي شهدتها هذه التخصصات من انتقال باحثين من تخصصات أخرى إليها، ناقلين معهم نماذج وأفكار ورؤى مختلفة، مما أعطى دفعة معرفية لنقد الذات وتطورها؛ وهي الفكرة التي لم يعطها المؤلف حقّها في الكتاب، رغم أنها تعتبر فكرة أساسية في الدراسات البينية. فما يراه المؤلف أنه أيديولوجيًا بمعناها السلبي، قد أسهم بشكل أو بآخر في تطور العلوم، ومنها مسألة القطائع الإبستمولوجية، التي تمثّل قطيعةً مع الفكر السابق، وتعني بالضرورة قطيعة مع بعض الأيديولوجيات التي أتى بها باحثون من داخل هذه العلوم وخارجها ومن المحيط الغربي نفسه. كذلك ظهور النسبية الثقافية القائمة على ضرورة احترام الأقليات والثقافات الفرعية، وتقبل درجة تطورها التي تتناسب طردًا مع حاجاتها وغاياتها، وهذا ما شهدته الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة بعد أفول النظريات الأولى وظهور الرعيل الثاني من الأنثروبولوجيين الذين حاولوا الدفاع عن حقوق السود والهنود الحمر وأحقيتهم في التعايش مع الشعب الأمريكي. مما يعكس أن الخطاب الأيديولوجي لا يتخذ دائمًا منحى الاحتقار أو أسبقية إثنية على أخرى. لذلك، يفتح هذا المجال باب النقد على الدراسات التي اختارها المؤلف لإبراز الخطاب الأيديولوجي للفكر الغربي من خلال العلوم البينية، لكونه لم يوضح الأسباب الموضوعية لاختيارها كنماذج للنقد.

رغم ذلك، تمكن الباحث من التصدي لفكرة استغلال الغرب للبحوث الإنسانية والاجتماعية لشرعنة ممارساتهم ضد الآخر المختلف عنهم تحت شعار "إلحاق البدائي بالحضارة"، تلك الحضارة التي وضع الغرب أسسها وأوضح مؤشراتها دونما اعتبار لرغبة الآخر واستعداده للالتحاق بها، وكأن المجتمع الغربي وضع نفسه في موضع المسؤول عن فهم الوجود وتحسين الموجود، وهو ما يرى المؤلف أنه أباح للغرب تصنيف الآخر وفق أهوائه، وأضفى على نفسه الحق العبث في التركيبة المجتمعية للآخر، مستعينًا بتلك النماذج والنظريات والمفاهيم التي طوّرها الفكر الغربي واتخذها أداة يحارب بها كل ما يختلف معه ولا يحقق معاييره. ولعل المؤلف أدرك هذه المسألة بوضوح من خلال البحث في العلوم التي انتهجها الغرب لدراسة الشرق، مثل علم الاستشراق وما حمله من علوم بينية كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والمنطق واللغة والفلسفة والأدب وغيرها، فقد عملت هذه التخصصات بشكل أو بآخر على تكريس هيمنة الغرب على الشرق، وأسهمت في تفكيك البنى الاجتماعية وفهم العقل الشرقي والعربي على وجه الخصوص. فالدّارس للشرق يجد نفسه مضطرًا لبناء جسور معرفية بين مجموعة من العلوم لفهم الثقافة الشرقية في كليتها وفي جزئياتها؛ فتركيز المؤلف المستمر على توضيح منهجية تطبيق الاستشراق على الثقافة العربية يدلّ على تعقيد الثقافة الإسلامية، التي يصعب تحليلها وفهمها من خلال منهج علمي واحد، لكونها تجمع المكتوب والشفهي، والمنطقي والميتافيزيقي، والتعدد الألسني والاختلاف الإثني، ووحدانية الديانة الإسلامية وما يصاحبها من تديّن وإيمان جمعي مطلق. إضافةً إلى ذلك، رفض المؤلف حكم الغرب على الفرد العربي

11 توماس كون، **بنية الثورات العلمية**، ترجمة حيدر حاج اسماعيل (لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص184.

بأنه يحمل عقلية بدائية من منطلق أهمية المنطق في التفكير؛ حيث يرى أن هذا الحكم كان تعسفيًا وصدر بدون محاكمة عادلة للثقافة الإسلامية التي لم تتمكن نظريات المنطق الغربي من اختراقها كليًا. ويحسب للمؤلف هذا التعمق في قراءة وتحليل أفكار الباحثين الذين تناول مشاريعهم الفكرية في الكتاب.

من الأمور التي يمكن أن تؤخذ على المؤلف بعضا من السطحية التي شابت تناوله وتحليله أعمال بعض المفكرين، وهو أمر قد يكون متوقعًا بالنظر إلى شمولية واتساع الموضوع الذي يتناوله، كما يتجلى ذلك ي الجزء المخصص لفكر الفيلسوف كيركجارد؛ حيث بدا أن المؤلف لم يوفق في إبراز التلاقح المعرفي بين الفلسفة والأنثروبولوجيا في فكره بالشكل الكافي، مكتفيًا بالإشارة إلى معارضته لوجودية هيجل وإلى تأكيده على أهمية اللاعقلي في الإيمان المسيحي، لكنه أغفل تسليط الضوء بشكل أساسي على كيفية إسهام كيركجارد في تأسيس الأنثروبولوجيا الفلسفية، وخصوصًا من خلال فكرة "صنع العالم" التي شكّلت محورًا رئيسيًا في فكره. في هذه الفكرة يؤكد كيركجارد أن العالم "ليس إلا كائنًا في علاقة بساكنه ومستخدمه، والعلاقة هي علاقة بناء"[12]. ويعكس هذا التصور رؤية بنائية، حيث أن علاقة الإنسان بالوجود هي علاقة فردية يحكمها البناء الذاتي؛ وهي نقطة مركزية في فكر الأنثروبولوجيا الفلسفية لديه؛ حيث حاول استرجاع أنثروبولوجيا شخصية ترتكز على العلاقة الفردية التقريبية بدلًا من المقاربات التجريدية والاختزالية. في المقابل، تمكننا ملاحظة نقد الأنثروبولوجي جيلنر (Gellner) لهذه الفكرة؛ حيث يرى أن "بناء العالم هو مشروع جماعي وتعاوني يتم من خلال اللغات، والمفاهيم، والمعايير، والمؤسسات، والبنى الاجتماعية، والقيم ..."[13]، في محاولة منه لإعادة إحياء روح الجماعة والإيتوس المشترك في تكوين العالم الانساني. هذا التباين في الرؤى بين كيركجارد وجيلنر يعكس جدلية عميقة حول طبيعة العلاقة بين الفرد والجماعة في تصور العالم. إضافةً إلى ذلك، تُعد معالجة كيركجارد لظاهرة القلق من أهم أسس أنطولوجيته؛ فالقلق الذي يراه ظاهرة وجودية ملازمة للإنسان سواء في الخير أو الشر، يُخضع الإنسان لاختبارات تهز كيانه الداخلي وتُعطل حريته الوجدانية. وفقًا لهذا المنظور يقود القلق الإنسان إلى حالة من اللاوعي تضطرب فيها ذاته، بما يدفعه نحو التوبة والإيمان كوسيلة للتخلص من القلق والخطيئة. ومن هنا تتضح أهمية الدين والإيمان في مشروع كيركجارد الفلسفي؛ حيث يلعبان دورًا مركزيًا في تشكيل الأنثروبولوجيا الوجودية لديه، وهي أنثروبولوجيا تُعيد الاعتبار للإنسان ككائن فردي يعيش في علاقة وجدانية مع الوجود. وعليه، كان من الضروري أن يُبرز المؤلف هذه الجوانب المتشابكة والمترابطة في فكر كيركجارد، نظرًا لأهميتها في بناء مشروعه الفلسفي والأنثروبولوجي.

على الرغم من هذه الانتقادات الموجهة للمؤلف، إلا أنه لا يمكن إلا أن نثمّن الجهود الكبيرة المبذولة في هذا العمل، فالكتاب يشكل مدخلًا مهمًا لفهم تداخل الدروب المعرفية وتشابكها في فهم الظواهر الاجتماعية والثقافية في شموليتها، مما يبرز أهمية هذا التوجه في إثراء الدراسات الإنسانية. وتحسب للمؤلف شجاعته في نقد مركزية الفكر الغربي ورواده، خاصة من خلال تفكيك المساعي الأيديولوجية التي حاولوا عبرها تعزيز استعلاء الجنس الغربي وتقزيم الآخر المختلف عنهم، ولا سيما إنسان الشرق. وقد أوضح كيف استغِلّت النظريات والمفاهيم كأسلحة فكرية لتحقيق هذه الأهداف؛ كما أن حذق المؤلف في التركيز على التداخل المعرفي في دراسة الثقافة الإسلامية واللغة العربية مكّنه من تجنّب الوقوع في فخ التأثر بالنزعة الغربية ومخرجاتها الفكرية التي حاول نقدها. مما يجعل هذا الكتاب مرجعًا مهمًا ودعوة مفتوحة للباحثين العرب في إعادة الانشغال بالفكر الإسلامي والثقافة الجوانية، ومن خلال هذا العمل يقدم المؤلف رسالة واضحة بضرورة التحرر من رواسب الفكر الغربي المتجذّرة في مختلف الأنظمة الاجتماعية والثقافية وغيرها.

12 Nigel Rapport, "The truth is alive: Kierkegaard's anthropology of dualism, subjectivity and somatic knowledge", *Anthropological Theory*, v2, n2 (2002), p. 169.

13 Ibid., p. 69

في الختام، نؤكد على القيمة العلمية لمقترحات الكتاب التي يمكننا تلخيصها في النتائج الآتية:

1. تقنية الاستعارة في العلوم الاجتماعية والإنسانية: أبرز الكتاب كيف اشتغلت العلوم الاجتماعية والإنسانية بتقنية الاستعارة؛ حيث استغل المفكرون هذه الخاصية لفهم وتفسير الظواهر الإنسانية عبر الاعتماد على العلوم البينية، مما أتاح مقاربات أكثر شمولية لفهم التعقيدات الثقافية والاجتماعية.
2. غياب النزعة الموضوعية المطلقة: أظهر المؤلف أن الاستخدام النظري والمفاهيمي، بالإضافة إلى اختيار مواضيع الدراسة ومناهجها في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لم يكن خاضعًا لنزعة موضوعية مطلقة في الفكر الغربي، بل تداخلت فيه الدوافع الأيديولوجية التي سعت إلى تحقيق أهداف شخصية وغائية، تم تقديمها على حساب مصداقية العلوم والموضوع المدروس.
3. استنطاق الخطاب الأيديولوجي الغربي: سعى الكتاب إلى تفكيك الخطاب الأيديولوجي للفكر الغربي، بما يحمله من مؤشرات ومعالم تهدف إلى تعزيز السيطرة الإثنو–مركزية الغربية، موجهة ضد الثقافات البدائية من جهة، وضد الثقافة الإسلامية بشكل خاص من جهة أخرى، وذلك من خلال الاعتماد على العلوم البينية ذات الإبستيمية الذاتوية والتحيز العرقي.

المراجع

أولًا: العربية

زناتي، أنور محمود. "المستشرق الفرنسي ليون جوتييه (1862-1949) ودوره في الحوار الثقافي بين الشرق والغرب". **مجلة دراسات استشراقية**، ع37 (2024): 163-198.

سرحت، سعد. **دراسات بينية في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاستشراق – اللغة – الفلسفة**. عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، 2024.

كون، توماس. **بنية الثورات العلمية**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل. لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007.

ثانيًا: الأجنبية

References:

Kuhn, Thomas. The Structure of Scientific Revolutions, (in Arabic), trans: Ḥaydar Ḥājj Ismāʻīl, Lebanon, Arab Organization for Translation, 2007.

Mowad, Nicholas. "The Soul and the Body in Higel's Anthropology." PhD thesis, (in Arabic), The Faculty of the Graduate School. Chicago: Loyola University Chicago, 2010.

Rapport, Nigel. "The truth is alive: Kierkegaard's anthropology of dualism, subjectivity and somatic knowledge." *Anthropological Theory*, Vol. 2, N. 2 (2002): 165-183.

Srḥat, Saad. *Dirāsāt bynyh fī al-anthrūbūlūjiyā wa-ʻilm al-ijtimāʻ: al'stshrāq-āllght-ālflsf* (in Arabic), Amman: Dār Kunūz al-Maʻrifah lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ, 2024.

Zanaty, Anwar Mahmoud. "The Role of French Orientalist Leon Gauthier (1862-1949) in the Cultural Dialogue between East and West." (in Arabic), *Majallat Dirāsāt Istishrāqīyat*, No. 37 (2024): 163-198.